رابعة العدوية

للأستاذ طه عبد الباقى سرور
عرض ونقد
للدكتور عبد الحليم محمود
٠٠ أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

لم تؤلف رابعة العدوية الكتب ، أو تحبر المقالات ، فيترجم لها كمؤلفة ، فى سهولة ويسر !

ولم تحدث ثورة سياسية ، تنعكس صداها على صفحات الكتب أوالجرائد التى تمدنا بسيل من المعلومات والوثائق فتكتب عنها دون عناء

ولم تعن هى بالتأريخ لنفسها ، فتغنينا عن الظن والتخيل لذلك لا نجد عن آرائها ، وعن حياتها ، الا عبارات منثورة هنا وهناك ، فى قلة وتفرق ، يبعثان الضيق الشديد فى نفس المؤرخ أو الباحث ٠

ورغم قلة هذه الاخبار ، فان الكثير منها متضارب متناقض ، ولا أدل على ذلك من أن بعض الروايات تصف رابعة : بأنها عاشت عذراء بتولا ، بينما تجعلها الروايات الأخرى تزوجت وعاشت فى ظلال الرباط المقدس ٠

وهذه الأخبار على تضاربها وقلتها ، لا تجدها مجتمعة فى كتاب أو كتابين أو عشرة كتب ، وانما أنت مضطر للبحث فى صبر واناة ، بين مئات الصفحات ، وفى كتب غير مألوفة عادة ، حتى تعثر — بين الفينة والفينة — على خبر قصير أو جملة عابرة ٠

وكتبنا ، للأسف الشديد خالية — كما هو معروف — من الفهارس التى تسهل على القارىء العثور على مايريد فى زمن قريب ٠

من أجل كل ذلك تناولت كتاب « رابعة العدوية » للأستاذ طه عبد الباقى ، فى اشفاق ٠ فهل سيتأتى للمؤلف تكوين صورة واضحة المعالم عن رابعة ؟ ذلك — والحق أقول — ما شككت فيه ٠٠

وبدأت أقرأ ٠٠ وراعنى — أول ما راعنى — هذا الأسلوب الاخاذ الذى كأنه لحن موسيقى جميل ، يملك على النفس أقطارها ، ويضطر الانسان اضطرارا الى الاعتراف بما اعترف به السابقون : ان من البيان لسحرا ٠٠

واذا كان قد راعنى الأسلوب ، واذا كنت قد حمدت الله على أنى سوف لا ألقى فى قراءة الكتاب عناء ناتجا عن تعقيد فى اللفظ أو فى المعنى ، فانى مع ذلك لم أرد أن يغشى سحر الاستاذ طه على عينى ٠ فيجعلنى أنظر الى

الكتاب من هذه الزاوية ، وأقدره بحسبها دون التفات الى المعنى والى جوهر الموضوع !!

وبدأ المؤلف بعد صفحات رائعة عن الحياة الروحية فى الاسلام .. يتحدث عن مولد رابعة ونشأتها فيجعلنا نكاد نرى رأى العين ، ذلك الكوخ المتواضع القائم بأطراف البصرة ، وبداخله الأب الزاهد يصلى ويتهجد ، والام المسكينة على وشك الوضع ، وليس فى الكوخ شىء مما يصنع للمواليد عند الولادة ! .. لم يكن ثمة - كما يقول فريد الدين - مصباح للنور - ولا نقطة سمن للخلاص ، ولا قطعة قماش يلف بها المولود .

وكان للأب ثلاث بنات ، فسميت المولودة الجديدة « رابعة » لأنها رابعتهن . ويأخذ الاستاذ طه فى تحقيق نسبتها ، وفى بحث الروايات المتضاربة فى شأنها وينتهى - بعد تمحيص بارع للروايات ، ومهارة فى النقد والتحقيق - بقوله .. فكل رواية تاريخية فيها ذكر للحسن البصرى ورابعة .. فهى رواية لا يقرها التاريخ ، ولا يرض عنها الحق ، وكل رواية ذكرت فيها رابعة زوج أحمد بن أبى الحوارى ، أو رابعة وذو النون المصرى .. فهى رابعة الشامية ، وبذلك تتسق الروايات التى تحدثت عن زواج رابعة ، والاخرى التى ذكرت أنها عاشت عذراء بتولا - فالتى تزوجت هى رابعة بنت اسماعيل ، والبتول العذراء .. هى رابعة العدوية البصرية ..

لقد استنار الطريق الآن ، ووضع الامر فى شأن الروايات المتضاربة - وها نحن أولاء نرى رابعة تنشأ وتترعرع فى كنف والد صالح ، وأم طيبة طاهرة .. ، ونرى فيها منذ طفولتها استعدادا فطريا للصلاح والتقوى .. فلم يكن مفر من أن تسير فيما رسمه لها القدر بالوراثة والاستعداد ، والقدوة الصالحة ، والبيئة المنزلية الطاهرة !

ولكن الأقدار وان كانت قد رسمت لها حياة الطهر ، فانها لم ترسمها لها معبدة .. فها هو ذا والدها يموت ، وهاهى تلك والدتها تلحق به ، ثم ها هى ذى المجاعة القاسية تحل بالبصرة فتفرق بين رابعة الصغرى وبين أخواتها الكبارات اللائى ذهبن للبحث عما يحفظ الرمق وتؤخذ رابعة قسرا ، وهى فى عمر الزهور فتباع بيع الرقيق الى من لا يرحمها .. ولكنها فى كل ذلك لم تبتئس ، ولم تتضجر ، وانما تتجه الى الله ترجو رضاه .. ؟

اذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

ويشاء الله أن يشعر سيدها بقيمتها الروحانية السامية ، وبمنزلتها بين الأبرار والمقربين ، فيمنحها الحرية .. !

ها هى تلك فجأة قد تخلصت من أسر العبودية ومشاغلها ، وقد تحقق لها ما كانت ترجوه من الله ، اذ كانت تدعو قائلة : « اللهم انى أعوذ بك من كل ما يشغلنى عنك ، ومن كل حائل يحول بينى وبينك .. »

وتخلص رابعة نفسها لله الاخلاص كله ٠٠ ، ويصور لنا الاستاذ طه ذلك فى صور أخاذة ، ويسير بنا معها مترقبا درجة فدرجة ، فيرينا رابعة فى مقام التوبة ثم فى مقام الرضى ، ثم فى مقام المراقبة ، ثم فى مقام المحبة ٠٠

ويستفيض المؤلف فى الحديث عن منزلة المحبة ، فلا يتكلم فيهـــا عن رابعة فحسب ، وانما يتحدث عن هذه المنزلة فى الاسلام عموما موازنا بينه وبين مختلف العقائد والمذاهب والاديان ٠٠ لقد كتب المؤلف عن « مقام المحبة و « رائدة الحب الالهى » و « الحب والتصوف » و « المتصوفة وتعريفات المحبة » ٠٠ و « صور الحب عند رابعة » و « رابعة ومقام الغناء والحب » ، و « الحب والمعرفة » و « المحبة الالهية مقام اختص به الاسلام » و « الحب الالهى فى المسيحية واليهودية »و « الحب الالهى فى الفلسفة الاوربية » و « الحب الالهى فى القيد البوذية » و « المحبة الالهية هى روح الاسلام » ٠٠

والواقع أن هذا البحث على هذا النسق من السعة والشمول ، كان من أمس ما نحتاج اليه ٠٠ ذلك أن المستشرقين ومن لف لفهم يريدون دائما تصوير الاسلام بأنه لا مكان فيه لعاطفة الحب ٠٠ اذ هو يفصل بين الله والانسان فصلا تاما ، ويصور الله بالجبار والقهار ، والصلة بينه وبين عبده ليست الا صلة قهر واستبداد ٠٠

وينس المستشرقون ويهملون ما ورد فى الاسلام : من رحمة الله بعباده ، ولطفه بهم ، وحبه لهم ، وحبهم له ٠٠

والاستاذ طه يوضح كل ذلك ، ويسترسل فى بيانه استرسالا لايقدره حق قدره الا من عرف التصوير الخاطىء الذى يصور به الغربيون الاسلام

وفى أثناء سير الاستاذ طه بنا مع رابعة فى معاريج قدسها ٠٠ يرينـــا الأخطاء الجمة التى وقع فيها خصوم التصوف وخصوم رابعـــة ، حتى اذا وصل الى الفصل الاخير « مع الخالدين » جعلنا نحس احساسا قويا بصدق كلمة الاستاذ « ماسينيون » عن رابعة اذ يقول :

« انها تركت فى الاسلام أريجا من الحب ، وعطرا من الولاية لن يتبخرا ولن يزولا ٠٠ »

والواقع : أن الأستاذ طه أعطانا صورة منسقة منسجمة عن رابعة لم نكن نتصور أن فى الامكان ــ مع قلة المصادر ــ الوصول اليها ٠٠ وأعترف ان اشفاقى وشكى قـــد انقلبا الى غبطـــة وسرور ، ولكن ٠٠ ولابد من « ولكن » ٠٠ فكتاب الاستاذ طه لم يخل من اثارة أســـئلة فى النفس ، لا يجد الانسان عليها جوابا فى الكتاب ٠٠

ولا أريد أن أذكر الا سؤالين ٠٠ أولهما هين ، وربما كان للاستاذ طه العذر فى عدم الاجابة عليه لقلة المصادر ٠٠ والسؤال خاص بهذه الجـارية الطيبة « عبدة »

لقد كانت رابعة فقيرة .. فكيف لها بهذه الجارية .. ؟ وقد كانت رابعة ترى القيام بخدمة نفسها عبادة .. فكيف ترضى أن يكون لها جارية ؟.. وماذا تفعل رابعة بالجارية وحاجاتها من القلة بحيث تكاد تكون معدومة ؟

أما السؤال الثانى فخاص بموضوع خطير كل الخطورة .. وهوموضوع التأويل .. أعنى تأويل الصور الحسية وصرفها الى معان لا صلة لها بالمادة يقول الاستاذ طه ..

« رابعة أول من جرد الاشياء والصور من معانيها الحسية ، وأول من ابتدع هذا اللون من الايمان الصوفى .. !

وهو ايمان أصيل كامن فى كل آية من آيات القرآن الكريم ، ولكن رابعة جلته وأوضحته ، وفتقت أفقه ، وفجرت نبعه ، وأرشدت الناس الى لحنه ونهجه وسبله .. »

ثم يروى الاستاذ طه بعض ما يروى من الكرامات الحسية التى تعزى الى رابعة . ثم يقول :

« يجب أن نتفهم كل هذه الروايات على معانيها التجريدية .. فالرواية التى تقول : ان الكعبة جاءت لتقابل رابعة وسعت اليها .. فان المراد بالكعبة هنا .. معنى الكعبة .. رحمة الله مثلا .. أو قبول الله لحجها ..

ويستمر الاستاذ طه فى مثل هذه التأويلات .. ثم يقول :

« وكل قارىء للتصوف يجب أن يمسك بهذا المفتاح السحرى .. مفتاح التجريد الحسى .. الذى يطلعه على الحقائق الروحية .. المستترة وراء المعانى الحسية . ولنا أن نتساءل .. هل نفتح باب التأويل على مصراعيه .. فيتطرق الأمر الى جميع المعجزات ؟!

أم أن للتأويل حدودا ؟ فما هى تلك الحدود .. ؟

أما بعد ، فاذا كنت قد أطلت فى الحديث عن الكتاب .. فذلك لأنه خصب نفيس والله ولى التوفيق .

عبد الحليم محمود

* * *